النص التراثي
بين قراءتي التفسير والتأويل

الأستاذة ليندة خراب

جامعة الإخوة منتوري–قسنطينة

لا تزال الأنظمة التراثية المكتسبة قديما قابلة للاستعمال اليوم؛ إذ يمكنها أن تتجاوز سوادها لتتحول إلى نصوص بيضاء غير مستعصية على التلقي والتأويل. فالحقل التراثي، النقدي والبلاغي العربي جدير فعلا بالقراءة لا قراءة تعشق وإجلال لهذا النص وإنما قراءة واعية تصدح بالمكنون تريد تفتيقه وتتتبع الإشارة تريد تحريرها من قيد التاريخية المغلقة فلم يعد في الإمكان، إذن، تصور التراث بوصفه مجموعة من القوالب الساكنة، إنه يمثل تاريخا مفتوحا للكلمة، تاريخا للكتاب الخاص و لجمالية قاومت تيار الركود، وهي تريد الآن أن تنبعث من جديد مراهنة على دينامية أنظمتها الإشارية وقابليتها لقراءة التأويل.

من هنا، كان التأويل خيارنا المنهجي الملائم لموضوعة غاية في التعقيد والحساسية، هي النصوصية التراثية، اللغوية، النقدية، البلاغية والفلسفية ولما كان المنهج نتاج تفاعل وحوار خصيب بين الباحث وموضوع بحثه فإن غاية هذا التفاعل صياغة الأسئلة القلقة حول موضوعة التراث ومحاولة حثيثة لاستنباط مجموع الأعراف والأنظمة الدلالية الحافة والكامنة المتحكمة في هذه المنظومة النصية.

فالتأويل إذن اجتراح باطني للنص أو هو: «قراءة ودود النص وتأمل طويل في أعطافه وثرائه وما يعطيه لقارئ مهموم بثقافة الجيل من بعض النواحي، التأويل مبناه

الثقة بالنص والإيمان بقدراته والاشتغال بكيانه الذاتي والغوص المستمر على تداخلات بنيته»[1].

غير أن معضلة التأويل بالذات تكمن في ذلك التعارض الشكلي الظاهر بين المؤوِل (القارئ) والمؤوَل (النص)، إذ أنى يكون لقارئ مثالي متسلح بمنظومات تأويل جديدة أن يقبل على نص كثيف الطبقات ملغم بالأسئلة، غائر في التاريخانية؟؟ ومن ثمة لن يكون لقراءة التأويل سوى وجهين اثنين من التداخل العابر للنص، فإما أن تتقصد خلخلة قداسته ومناقضة منظومته الدلالية القديمة و إلا فإن قراءة الذوبان في أعطاف النص والاستسلام لبريق سلطته ستكون هي المآل المحتوم لقراءة يغيب فيها العقل وتضعف خلالها طاقة المؤوِل على التأويل. فالتأويل قراءة مشاكسة للنص (للماضي) ومهادنة له في آن وهو تجاوز للتاريخ ووثب مستمر على قراءة المؤثرات، لأنه بوسعنا أن ننجز معرفة متراكمة عن مجموع السياقات التي أسهمت في إنتاج النص ومع هذا يبقى النص عييًّا صامتا لا يكاد يبين!!.

إن منهج التأويل يمنح النص حريته العابرة للزمان والمكان ليخترق صمته ويحرر مدلولاته لأن المعنى في النص (القديم) لا يمكن أن يتذاوب في تركيب ولا يحده عرف لغوي أوبلاغي ولا تكبله تاريخا نية ثابتة. من ثمة كان التأويل نقطة تقاطع محموم بين وعي القارئ ووعي النص أو مشهدا لعناق حار بين لحظتين: الأولى هاربة من الماضي، مثقلة بتاريخ ما للكلمة، للمعنى! والثانية تحاول أن تتنازل قليلا عن حداثتها (الزمنية) لتحاور الماضي لتفهمه دون أن تجرده من خصوصياته أو تتجاسر على هويته لأن المعرفة التأويلية مسافة مدروسة بين المؤوِل والمؤوَل بين القارئ والنص.

---

(1) محاورات مع النر العربي. مصطفى ناصف. مجلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. 1997. ص 07.

ثم أليس كل نص بعد ذلك قديم وحديث في آن؟؟ لأن النص المفتوح نص يعلو على زمنه وعلى مجموع السياقات التي أنتجته تماما مثلما تكون القراءة التأويلية تعال مثالي على كل العوارض التي تعطل فعل التلقي، فمنهج التأويل يسعى باستمرار إلى ردم كل الثغرات الفاصلة بين طرفي معادلة التلقي (مؤوِل/ مؤوَل) ويمنح القارئ كل الإمكانات والضمانات الضرورية لتقدير الطبيعة الخلافية للنص، فنحن لا نقرأ دائما نصوصا تشبهنا وإنما نحب أكثر أن نقرأ نصوصا تقوم بيننا وبينها مسافات وعقبات شتى، لنتعلم بعد ذلك كيف نقدر هذا الاختلاف ونحبه في الوقت نفسه. فالتأويل تثمين لقراءة الضد يد حيث: «لا بد للقراءة التي تخلق المفارقة أن تحارب قالب الرأي المألوف عن طريق دعم نقيضه وبعبارة أدق فلا بد للمرء أن يكشف هذا النقيض بين طيات القراءة التي تشجع الرأي المألوف»[1].

فقراءة الاختلاف (نص قديم- قارئ معاصر-تأويلية): هي دمج بين صوتين يدوان متنافرين، صوت الأنا (القارئ) الذي يطارد إشارات النص من خلال حركة ذهنية مطردة وصوت الآخر (النص) الذي يراهن على البعد الذاتي للكتابة، وبين الأنا / والآخر: إقبال ونفور، ائتلاف واختلاف، هدم وبناء بنفس درجة التوتر والحساسية غير أن هذه (الأنا) المقبلة بشغف وشغب إلى النص ما كانت لتكون البتة بنية مقعرة مغلقة مركزية التفكير والمعرفة لأن منهج التأويل متعدد، ملتبس فهو محاورة بين النص وصنوه من النصوص القديمة المتزامنة والحديثة، إذ أن: كل نص هو امتصاص وتحويل لكثرة من النصوص الأخرى" Tout texte est apsorption et transformation

(1) المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، وليم راي، ترجمة يوئيل يوسف عزيز. مطابع العربية للطباعة، بغداد. ط 1987. ص194 .

d'une multiplicité d'autres textes »[2] وهو من جانب ثان (القارئ) مقاومة شديدة لبنية التشظي والفردانية فـ (أنا أقرأ النص (. . .) وأنا لا أخضعه لعملية تحويل يترتب عليها عملية أخرى تعرف بأنها (القراءة)، لأن هذه (الأنا) ليست ذاتا بريئة وأجنبية على النص تتعامل معه كنتيجة لذلك(. . .) وأن هذه (الأنا) التي تتقدم نحو النص هي نفسها (جماعية) أو بقول أكثر دقة تتكون من شفرات منسية (أي أن أصولها منطمسة)[3].

فمنهج التأويل حسب ما سلف لا يقدس عزلة النص والقارئ ويمنحهما ثراء وغنى ويثمن فضاء اهما الواعية واللاواعية, المكتوبة والمحذوفة. فالتأويل يغازل نصا ما كان ليكون حبيس عوالم مغلقة، أيديولوجيات جاهزة وتقسيمات خشنة. التأويل قراءة مركزها ذات القارئ, وهاجسها استنباط المعنى النافر في نص مسكون بفتنة القول ودهشة الفكر وروعة الاختلاف الأيديولوجي الجمالي والعقدي. هو ذا النص التراثي الذي صار لزاما علينا الآن إعادة قراءته وإدماجه في سياق مشروع جمالي وفكري معاصر سيما وأن التراث يمثل لوحده نسقا مؤسساتيا متكاملا يضم أروقة لجمالية اللغة والبلاغة والنقد والفلسفة. . الخ .

وإذ نعتقد غير مبالغين أن تأويل النص التراثي لم ينجز أو لم يكد ينجز بالشكل الذي نتوخاه بعد فهذا يثبت مرة أخرى مدى جدية هذا الطرح وأهميته في الوقت نفسه؛ وعليه كان حري بنا أن نتساءل مرة أخرى : كيف نقرأ التراث؟ وما هي أنجع

(2) – dictionnaire Encyclopédique des sciences du langage Oswald Ducrot -et Tzevetane Todorov. Édition . seuil. 1972 . p 446.
(3) -s/z: Roland Barthes Edition du seuil 1970. pp. 10-11

آليات تأويل نصوصيته؟ ثم ما هي استراتيجيات تفسير التفاسير أو مقاربة المقاربات التي تقرأ التراث في زمنه أو في أزمنة متفاوتة وبطرائق تأويل متباينة كذلك؟؟ .

أسئلة كثيرة تغوص بنا في صلب انشغالات هذه القراءة التي تطمح إلى مماحكة النص التراثي الذي يجسد بحق شعرية مثلى للتجاوز، لأنه غالبا ما كان يمد جسورا للحوار مع نصوص أخرى فكان خيار التأويلية والتلقي سعي حثيث لأجل تأسيس علاقة جديدة مع نصوصية تراثية تتجاوز ذلك الفصل التقليدي المفتعل بين عناصر ثالوثية الطرح النصاني (مؤلف —نص-قارئ) .

2-محاورة منطوق التأويل من منظور الفكر التراثي العربي: ارتبط مصطلح التأويل بمعضلة تفسير النص (القرآني) وغالبا ما استخدم المصطلح في الفكر التراثي والدين الإسلامي مشحونا بدلالات تهجينية وسياقات تقول ببدعية المعرفة التأويلية وكراهيتها مقابل منح الامتياز لمنطوق التفسير وتمجيد كل المنظومات الدينية الفكرية والسياسية المنطوية تحت رايته ومن ثمة نعاين في هذا السياق اتجاهين مختلفين في معرفة النص: أحدهما يحتكم إلى التفسير بالنقل وأمثل نماذجه على الإطلاق، تفسير ابن عطية وابن جرير الطبري (جامع البيان في تفسير آي القرآن). ويقدم هذا المنهج نفسه بوصفه أمثل المناهج طريقة وأقربها إلى السنة وأبعدها عن البدعية وهو يمثل اتجاها تراثيا في الفكر الديني الرسمي أو ما يعبر عنه بأهل السنة والجماعة. أما الاتجاه الثاني فيأخذ بمنهج التأويل أو التفسير بالرأي والاستدلال مثل تأويلات المعتزلة والمتصوفة فهؤلاء يقومون بعقلنة التفسيرات ومن ثمة كانوا أبعد الناس عن السنة والطريقة وأوجلهم في تأويل الفتنة أو تأويل المتشابه من النص، وقد شملهم قوله تعالى: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات، فأما الذين في**

قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه من ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾[1]. وكانت تلك هي الشبهة (الزيغ والانحراف) التي يرفعها دعاة المنهج التراثي في وجه أهل التأويل حتى صارت المعرفة التأويلية تهمة لا تقل عن تهمة الكفر والإلحاد إلى جانب كونها قد تحولت إلى ذريعة خطيرة لمصادرة الحريات وفتحت الباب على مصراعيه أمام تناحر المذاهب والفرق الدينية الفلسفية والكلامية. غير أن الاشتغال القرآني على دال التأويل في الآية المذكورة يضع المحكم مقابل المتشابه وجعل ابتغاءهم الفتنة والتأويل مؤسسا لسياق المتشابه وذلك لوجود خاصية به تمكن المؤولين من التماس الفتنة بتأويله. أما المحكم فهو في اللغة ما يمنع بأحكامه تطرق الفساد إليه وإلى غيره أما المتشابه فيطلق على ماله أجزاء يشبه بعضها بعضا وما يلتبس من الأمر. فالمتشابه من الآيات هو ما له أفراد من المعاني يشبه بعضها بعضا ويحتمل ظاهره، فأهل الزيغ يأخذونه على ظاهره دون العودة إلى الأصول التي تبين حقيقة المراد منه، أما أهل الحق فيرجعونه إلى المعنى الذي يتفق والمحكمات فلا يأخذون في الآية بمعنى إلا إذا قام عليه الدليل[2].

غير ان الذي يستوقفنا اكثر في هذه الآية هو انصراف معنى التأويل إلى التأويل الإيجابي، بوصفه حركة ذهنية معرفية مثالية، و هو المعنى الذي عجز القدماء عن تمثله في الآية التي ترسم حدودا ابستمولوجية للتأويل، و لا تعطله لان التأويل المكروه هو تأويل الفتنة، لكن ليس كل تأويل فتنة، لان هناك تأويل مطلق لا يعلمه إلا الله، الذي و قع عليه الوقف هو الاستثناء في الآية، غير أن عاقبة بعض البشر، أن ينالوا حظا من العلم اللدني، و هم الراسخون في العلم مثلما تم ذكرهم في الاية: ﴿ و ما يعلم تأويله

---

(1)سورة آل عمران, الآية 07.

(2) البرهان في علوم القرآن, الزركشي, تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم , دار المعرفة, بيروت, لبنان, ط2, ج2, ص181.

إلا الله و الراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ (1).

فالتأويل هو الغاية و القصد من كل معرفة تغوص في ظواهر الأشياء و من ثمة يبدو التأويل أشمل من التفسير غير مطابق له و هذا تصور يختلف عن تصور القدماء الذين سووا بين دلالتي التفسير و التأويل رغم ما بينهما من فارق مفهومي دقيق، أما التفسير فهو البيان و قد جاء في سياق قراني وحيد في قوله تعالى: ﴿و لا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق و أحسن تفسيرا (2) في حين جاء دال التأويل في سياقات قرآنية متعددة، مما يدل على أن المعرفة التأويلية أكثر انتشارا و هيمنة من المعرفة التفسيرية داخل المنظومة الدينية، الفكرية

و اللغوية العربية قبل الإسلام و بعده و أن هذا التواتر لدال التأويل في القران الكريم هو في الأصل توجيه للإنسان و دعوة له حتى يوقف فكره على استنباط و تأويل الآيات / العلامات في الكون، الخلق و الذات و من ثمة توسع دال التأويل ليشمل أنظمة علامية متعددة حُلمية، قولية، اجتماعية (طعام، أفعال).

وبالرغم من هذه المكانة الأثيرة لدال التأويل قرآنيا، إلا أن الحركة التاريخية الدينية

والفكرية قد استأثرت بالتفسير و جعلت التأويل مرتبة ادنى مما جعل دعاة المنهج النقلي يكرسون سلطة النص الأول مصنفين إياه إلى أربعة مصادر هن أمهات التفسير الصحيح: تفسير الرسول، تفسير الصحابة و التابعين و أخيرا التفسير اللغوي.

إن هذا الموقف الصارم من لدن المنهج النقلي في الاحتكام المطلق إلى التفسير قد أدى إلى عزل دلالة النص و حصرها في زمن مغلق، هو ما يعرف بالعصر الذهبي، و

هذا يتعارض منهجيا مع المعرفة التاويلية التي تؤمن بحركة الدلالة التي تتجاوز الأطر الزمانية و المكانية، ثم

(1) سورة آل عمران, الآية 07

(2) سورة الفرقان, الآية 33

أليس هذا الأمر ثابت في تصور المنظومة الإسلامية المتعالمة للنص (القرآن) بوصفه نصا صالحا لكل زمان و مكان ؟؟ .

إن الاقتصار على التفسير في قراءة النص القرآني و الانكفاء على الرواية عن القدماء قد أدى إلى خلخلة التطور و حركية الزمن، حسب دعاة منهج التأويل، بخلاف دعاة منهج التفسير الذين يجعلون كل محاولة للتأويل خرقا للثبات و إهدارا لقانون أزلي، طبعا و لا يخلو هذا التصور القار لمفهوم النص و تلقي النص من رؤية إيديولوجية سكونية للعالم.

3 - محاورة منطوق التأويل من منظور لغوي.

جاء في لسان العرب: (أول: الأول: الرجوع. أول الشيء يؤول أولا و مآلا: رجع و أول عليه الشيء رجعه و أُلت عن الشيء: ارتددت و في الحديث من صام الدهر فلا صام و لا آل. أي لا رجع إلى خير. . و أوّل الكلام تأوّله: دبره و قدره و أوله و تأوله: فسره و قوله عز وجل (و لما يأتهم تأويله) أي لم يكن لهم علم بتأويله و هذا دليل على أن علم التأويل ينبغي النظر فيه، و في حديث ابن عباس: (اللهم فقه في الدين و علمه التأويل) قال ابن الأثير: هو من آل الشيء مؤول إلى كذا أي رجع و صار إليه و المراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ(. . .)و ثُلاثيه آل يؤول أي رجع و عاد و سئل أبو العباس أولت الشيء أؤوله إذا جمعته و أصلحته . فكان التأويل جمع معاني ألفاظ

أشكلت بلفظ واحد لا إشكال فيه و التأويل تفسير الكلام الذي تختلف معانيه و لا يصح إلا ببيان لفظه [1].

و عن الزركشي: (التأويل أصله في اللغة الأول و معنى قوله: ما تأويل هذا الكلام ؟ أي إلا ما تؤول العاقبة. . . و يقال آل الأمر إلى كذا، أي صار إليه: و أصله من المآل و هو العاقبة و المصير و أولته فآل أي صرفته فانصرف: فكان التأويل صرف الآية إلى ما تحمله من المعاني و قيل اصله من الايالة و هي السياسة، فكأن المؤول للكلام يسوس الكلام و يضع المعنى في موضعه [2]).

فبحسب المقامات الدلالية المذكورة أعلاه كان للتأويل معاني شتى، فهو العود و الرجوع إلى الشيء، إلى المكان و تفسير الكلام بتوضيح غموضه و التأويل شعبة من شعب المعرفة بالنص القرآني و دليله دعاء ابن عباس و إذا كان كذلك فقد ورد استحباب الأخذ بشرف هذا العلم و جاء التأويل بمعنى الإصلاح و الجمع أي جمع ما تشاكل من ظاهر ألفاظ القرآن و ليس في هذه السياقات اللغوية جميعا ما يدل على هجين التأويل أو حث على تركه إذا لم يكن فيه مخالفة لأمر ثابت من الدين بالضروزة.

إن تواتر دال التأويل في القرآن سبع عشرة مرة إثبات كاف لما للمعرفة التاويلية من أهمية في سياق المنظومة الدينية الجمالية الثقافية قبل الإسلام و بعده ؛ هذا و قد اتسمت المعالجة القرآنية لدال التأويل بالغنى و التنوع و لعل أهم بنية دلالية تأويلية منتجة في السياق القرآني، كانت متضمنة في سورة يوسف وهي تتوالد من رحم حقل إشاري أولي هو البنية الحُلمية بموقعيها المركزي ممثلا في حلم النبي يوسف والذي يتم

1- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر بيروت، لبنان، ط1، 1990، ج11 ص32.

2- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج2، ص148-149.

تأويله في نهاية السورة (القصة)، والفرعي ممثلا في مجموعة من البنيات الحُلمية لكل من الملك والسجينين، وتأخذ البنية الحُلمية بموقعيها المركزي والفرعي شكل نبوءة سرعان ما تتحقق بتأويلها من قبل مُؤول عارف هو يعقوب مُؤول حلم النبي يوسف ويوسف مؤول حلم السجينين والملك .

والجدير بالذكر هنا أن دال التأويل في هذه السورة قد جاء مجاورا لدال (الأحاديث) في قوله تعالى: ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾[1] أو مضاف لدال الأحلام: ﴿قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾[2]. وتارة مع دال الرؤيا بدلالات متقاربة ﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا ﴾[3]

إن إطلاق دال الحديث على الحلم في سياق التأويل يدل على إمكانية تبادل المواقع الدلالية بينهما وهذا يرجع إلى أن المؤول في كلا الحالتين لا يقوم بتأويل الصور الحلمية في ذاتها وإنما المقصود هو تأويل النظام اللغوي الذي هو مجرد وسيط علامي لنقل الصور الحلمية فيكون التأويل بذلك موضوعه الدلالة الباطنية للأشياء من خلال وسيط هو الحديث تارة أو الأحلام والرؤى تارة أخرى. إن هذا التصور الدينامي والمعالجة القرآنية البارعة للمفوظ التأويل يجعله مستوعبا لآلية تساند الأنظمة الإشارية ومن ثمة يمكننا توسيع دائرة الاشتغال القرآني على دال التأويل الذي ورد في سياق قرآني آخر بمعنى تأويل الطعام ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل

1- سورة يوسف: الآية 06.

2- سورة يوسف: الآية 44.

3- سورة يوسف: الآية 100.

أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كفرون ﴾[1]

وجاء التأويل هنا بمعنى التنبؤ بالفعل و الأمر قبل وقوعه ويعضد هذا الدال ما جاء في سورة الكهف من تأويل لأفعال العبد الصالح الذي رافقه نبي الله موسى وعجز عن استكشاف الدلالات الباطنة لأفعاله فعدها خرقاء إلى أن أعلمه بها ﴿ هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾[2]

وعليه كان التأويل هنا مطابقا للدلالة اللغوية، بما أنه رجوع وعودة إلى معرفة أصل الأشياء سواء أكانت فعلا أو قولا، حلما أو طعاما أو أي شيء ملموس أو مجرد لنقل على وجه العموم كل حدث ويكون هذا الحدث ظاهرٌ وباطنٌ، ولا يعنى التأويل إلا بالباطن يكشفه ويرد ظاهره إلى باطنه ويربط نتائجه بأصوله وأسبابه.

من هنا كانت القراءة التأويلية مختلفة عن قراءة التفسير فهذه تعتمد باستمرار على وسيط لاستكنا ه دلالة الظواهر في حين لا تحتاج القراءة التأويلية إلى هذا الوسيط بل تكون مجرد حركة ذهنية وفعالية مباشرة بين الذات والموضوع المؤوِّل والمؤَوَّل.

فقراءة التفسير هي أحوج ما تكون إلى معرفة الحيثيات وإجلاء كل الوسائط التاريخانية، النفسية، الدينية و الاجتماعية التي أسهمت في إنتاج النص. من هنا كان العلم بقراءة التفسير علما نقليا منتهيا، قد تم القول فيه من لدن السابقين فهو لذلك لا يحتاج إلى اجتهاد أو ترجيح وبذلك تتمظهر المعرفة التفسيرية بوصفها مرحلة أولى ممهدة لمعرفة التأويل التي تأخذ بدورها شكل معرفة نامية غير منتهية في الزمان بخلاف

1- سورة يوسف: الآية 37.

2- سورة الكهف: الآية 78

قراءة التفسير و يتحدد هذا المعنى أكثر في قوله تعالى: ﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا﴾[1] .

فالتأويل هنا ورد بصيغة التفعيل فكان دالا على الحركة وتعني الكلمة في هذا السياق القرآني العاقبة أي مآل الحركة بالشيء إلى نقطة ما بالرعاية والسياسة، ولما كان شأن المعرفة التأويلية تطور معرفي مطرد، فإن ذلك منوط بنوع خاص من المعرفة القائمة على الاستنباط والدراية من لدن قارئ متعالم تكون ذاته بؤرة لتفكيك النص ومقاربة دلالاته التحتية، فقراءة التأويل بعد كل ما سلف ليست سوى توجيها معرفيا إلى إدراك باطن الأشياء بتجاوز ظاهرها.

1- سورة الإسراء: الآية 35